تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ، وإنَّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمديّة تبعٌ له عليه الصّلاة والسّلام، أن يقول لأهل الكتاب النّاقمين على المؤمنين دون سبب، الزّاعمين أنَّ دينهم شرّ دين: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾، هل أنبّئكم يا أهل الكتاب وأخبركم بشرٍّ من ذلك الّذي ظننتموه بنا ونقمتم علينا من أجله جزاءً عند الله تعالى وعقاباً؟ إنّه أنتم أيّها اليهود يا من لعنكم الله تعالى وطردكم من رحمته وغضب عليكم وأنزل عليكم سخطه، ويا من مسخ الله تعالى بعضكم قردةً وخنازير، ويا من عبدتم الشّيطان، وأطعتم اللّعين وعصيتم الرّحمن.

ولمّا كان اسم الموصول: «من» لفظه لفظ المفرد ومعناه معنى الجمع ويصحّ مراعاة اللّفظ والمعنى بشأنه، فإنَّ القول في الآية الكريمة: ﴿لعنه الله وغضب عليه﴾، راعى لفظ: «مَنْ» في حين راعى ما بعد ذلك معناه: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾.

وإنّه في مقابل مجيء لفظ الشرّ على لسان اليهود في حقّ دين الإسلام يجيء في حقّهم القول في الآية الكريمة: ﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عن سواء السّبيل﴾.

إنَّ أولئك اليهود الّذين أطاعوا الشّيطان الرجيم وأبوا بلعنة الله تعالى وغضبه حتّى إنَّ منهم من جعله الله تعالى قردةً وخنازير إنَّ أولئك شرّ مكاناً في الحال والمآل، وأنَّ أولئك أضلّ عن سواء السّبيل ووسط الطريق والصّراط المستقيم. إنَّ الخروج عن الصّراط المستقيم معناه الفسق، وإنَّ أكثر القوم قد وصفوا في الآية الكريمة بالفسق، وإنَّ الخروج عن الصراط المستقيم معناه الضلال المبين الأبعد من كلّ ضلال، وقد وُصِف القوم به هنا في القول: ﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عن سواء السّبيل﴾.

والعجيب في أمر هؤلاء اليهود أنَّ فيهم منافقين يعلنون الإسلام ويبطنون الكفر. والمعروف أنَّ النّفاق لم يوجد في مكّة لضعف شوكة المؤمنين فكان الكفّار يعلنون كفرهم على رؤوس الأشهاد، في حين ظهر النّفاق في المدينة المنوّرة بعد الهجرة لأنَّ شوكة المؤمنين هي الأقوى فاضطرّ الكافرون لإبطان الكفر وإعلان الإسلام. إنَّ النفاق إذا كان قد ظهر بين سكّان المدينة المنورة من الأوس والخزرج الّذين لقّبوا في الإسلام بالأنصار، فإنَّ النّفاق ظهر هو الآخر بين طوائف اليهود للسَّبب ذاته. وإنَّ الآية الكريمة التالية لتتحدّث عن هذه الفئة، فإلى:

الآية رقم (٦١)

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

وجه الشّبه واضح بين هذه الآية الكريمة التي تتحدّث عن منافقي اليهود وبين الآية الكريمة من سورة البقرة[1]، التي تتحدث عن منافقي العرب من سكّان المدينة المنورة وما حولها. قال تعالى: ﴿وإذا لَقُوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنَّما نحن مستهزئون﴾.

وإنَّ أوّل ما يلفت نظرنا في الآية الكريمة مجيء جملة جاء في القول خطاباً للمؤمنين: ﴿وإذا جاءوكم﴾، والمعروف أنَّ جملة جاء إنَّما تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب والوصول والمجيء الفعليّ. إنَّ منافقي يهود الّذين ضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة إذا جاءوا المسلمين

(١) الآية ١٤.

ووصلوا إليهم والتقوا بهم وجهاً لوجه قالوا آمنّا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبيّاً ورسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً. وتقرّر الآية الكريمة على الفور أنَّ هؤلاء المنافقين من اليهود قد دخلوا متلبّسين بالكفر وقد خرجوا متلبّسين به. إنَّهم منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، وإنَّهم حينما يدخلون على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين يعلنون إيمانهم على رؤوس الأشهاد. وإنَّ ربّ العزَّة جلّ وعلا الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والّذي يعلم السّرّ وأخفى، والّذي يعلم ما توسوس به نفس كلّ إنسان يُكْذب أولئك المنافقين من يهود. وها هي ذي الآية الكريمة. تقرّر أنَّ منافقي يهود قد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به. إنَّهم كافرون حينما دخلوا وإنَّهم كافرون حينما خرجوا وبالتالي هم كاذبون في قولهم إنَّهم مؤمنون.

وإنَّ منافقي يهود إذا كانوا يستطيعون أن يدّعوا الإيمان في حديثهم مع سيّد البشر محمد بن عبد الله ﷺ أو مع واحدٍ من البشر أو فريق فهل يظنّ أولئك المنافقون من يهود أنَّهم يستطيعون أن يفعلوا الشيء ذاته مع العليم الخبير جلّ وعلا. إنَّ ربّ العزّة يفضح منافقي يهود على رؤوس الأشهاد، وذلك في القول: ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾، وإنَّ الآية الكريمة في القول: ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾، تقرّر علم الله تعالى المحيط بكلّ ما كان يكتم منافقو يهود. وممّا كتمه منافقو يهود الكفر الّذي دخلوا به وخرجوا به، وادعاؤهم الإسلام. إنَّ لسان حال الآية الكريمة يقول ما جاء في حقّ منافقي العرب من سكّان المدينة المنوّرة الّذين اتّخذوا الموقف ذاته وذلك في سورة محمد ﷺ[1]: ﴿أم حسب الّذين في قلوبهم

(١) الآيتان ٢٩، ٣٠.

مرضٌ أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول. والله يعلم أعمالكم﴾.

والعجيب في أمر القوم أنّ كثيراً منهم يرتكب الكثير من الآثام رغم ادّعائه الإسلام. وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٦٢)

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)﴾.

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وكلّ فردٍ من أفراد الأمة الإسلامية وتقول له إنّك ترى كثيراً من منافقي يهود الّذين يدّعون الإسلام يسارعون في الإثم والعدوان وفي أكلهم السّحت ويهرولون إليها. وانظر إلى جملة يسارعون التي تدلّ على معنى جملة يسرعون وتضيف إلى ذلك فائدة الاجتهاد والاعتمال. وانظر إلى حرف الجرّ «في» الّذي يدلّ على وصول هؤلاء المسارعين إلى أعماق هذه القبائح. ونستطيع أن نفهم الإثم بأنّه الذنب الأقرب إلى كونه لازماً، وقد فهمنا هذا المعنى من لفظة «العدوان» بعد ذلك التي تعني أنّ الذنب أصبح متعدّياً. ونستطيع أن نفهم وراء ذلك في القول في الآية الكريمة التّالية: ﴿وقولهم الإثم﴾، أنّ الإثم كما يشمل الفعل يشمل القول. أمّا السّحت فإنّه كلّ مالٍ حرامٍ وبخاصةٍ المال الحرام الّذي يأتي من الرِّبا والرِّشا وما إليهما. وسمّى سُحْتاً لأنّه يُسْحِت الدين والمروءة، أي يستأصلهما. والسُّحْت في الأصل القِشْر الّذي يُسْتأصَل[١].

---

(١) مفردات الرّاغب «سحت» (٢٢٥).

وتذمّ الآية الكريمة القوم في تذييلها: ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾، اللاّم لام القسم لقسم مقدّر. بئس فعل ماضٍ جامد لإنشاء الذّمّ. ما: اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل بئس. أو نكرة في محلّ نصب تمييز للضّمير المستتر فاعل بئس[1].

والأعجب في أمر القوم أنَّ فقهاءهم وحلماءهم وحكماءهم وعلماءهم وأحبارهم يرون تلك المنكرات ولا يقومون بشيءٍ ممّا يجب عليهم من أمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر. وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٦٣)

قال تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

إنَّ الآية الكريمة تحثّ في أسلوب الإنكار وتحضّ الرّبّانيّين والأحبار على نهي اليهود عن ارتكاب هذه الآثام. إنَّ الآية الكريمة تقول: هلاَّ ينهي هؤلاء الّذين يسارعون في قول الإثم وأكل السّحت والحصول على أموال النّاس بالباطل من رباً ورشاً وغصبٍ وما إلى ذلك، ربّانيوهم وأحبارهم. أمّا الرّبّانيون فإنّهم أئمتهم المؤمنون وساستهم العلماء بسياستهم[2]، وتربيتهم وتنشئتهم. وأمّا الأحبار فإنّهم علماؤهم وقوّادهم[3].

وإذا كان قد جاء عن اليهود الآثمين القول في الآية الكريمة السّابقة:

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه (٣/ ٣٢٩).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٩٢).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ١٩٢).

﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾، فإنَّ الرَّبانيّين والأحبار الّذين لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر والّذين خانوا الأمانة يجيء عنهم القول في هذه الآية الكريمة التّالية: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾، والصّنع إجادة الفعل، فكلّ صنعٍ فعل وليس كلّ فعلٍ صُنْعا[1]، إنَّ المنتظر من العامّة أن يعملوا وقد أساءوا العمل لذلك قيل عنهم: ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾، وإنَّ المنتظر من الخاصّة أن يتقنوا العمل والفعل، وهم بدلاً من أن يحسنوا الصّنع أساءوا الصّنع. وكأنَّ إتقان العمل في مجال الخير والحُسْن قد تحوّلوا به إلى إتقان العمل في مجال الشّرّ والقُبْح، لذا قيل عنهم: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾.

ولم تقف جراءة القوم عند عباد الله تعالى إنّما تعدّتهم إلى ربّ العباد جلّ وعلا وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٦٤)

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾.

إنَّ اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم الدين قد بلغت بهم القباحة والوقاحة والجراءة إلى الحدّ الّذي زعموا معه أنَّ الله سبحانه وتعالى فقيرٌ وبخيل: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾[2]،

(١) مفردات الرّاغب «صنع» (٢٨٦).
(٢) سورة الكهف: الآية ٥.

جاء في سورة آل عمران[١] القول: ﴿لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء. سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقٍّ ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾، وجاء هنا القول: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾، والمعروف أنَّ الغُلَّ ينفرد بين سائر القيود بأنّه القيد الّذي يجمع اليدين ويشدّهما إلى العنق شدّاً. وبالتّالي يكون القيد أسوأ القيود المتعلّقة باليد لأنَّه يقيّد اليد ويغلّها إلى العنق. والغلّ مختصٌّ بما يقيَّد به فيجعل الأعضاء وسطه. والجمع أغلال. وغُلّ فلانٌ قيّد به[٢].

ولمّا كانت طبيعة الغلّ أنَّه يجمع بين اليدين والعنق كان في ذكر الغُلّ ذكراً ضمنيّاً لكلٍّ من اليدين والعنق. لقد جاء في هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء[٣] ذكل كلٍّ من اليد والعنق. قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسورا﴾، والآية الكريمة تنهي عن البخل وعن التّبذير وبذلك هي تعبّر عن فحوى هذه الآية الكريمة في صفات عباد الرّحمن من سورة الفرقان[٤]: ﴿والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قَواما﴾ وقواما بمعنى وسطا. وقد جاء في هذه الآية الكريمة من سورة يس[٥] ذكر الأعناق والأغلال ففهم أنَّ اسم الضمير «هي» يعود إلى الأيدي التي يعنى وجودُ الغُلّ وجودَها حتماً. قال تعالى: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمَحون﴾،

(١) الآية ١٨١.

(٢) انظر مفردات الرّاغب «غل» (٣٦٣).

(٣) الآية ٢٩.

(٤) الآية ٦٧.

(٥) الآية ٨.

وجاء في سورة غافر[1] قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الّذين يجادلون في آيات الله أنّى يُصْرَفون. الّذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون. إذ الأغلال في أعناقهم والسّلاسِلُ يُسْحَبون. في الحميم ثمّ في النّار يُسْجَرون﴾، والمعنى: إذ الأغلال في أعناقهم وأيديهم والسَّلاسل في أرجلهم.

وإنَّما جاء عن اليهود عليهم لعنة الله تعالى القول: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾، لأنَّهم فيما يقال كانوا قبل بعثة المصطفى ﷺ في نعمةٍ وثراء وحينما بعث الله تعالى محمد بن عبد الله ﷺ بدين الحقّ كفروا به عليه الصَّلاة والسَّلام فحلّ بهم من حبس المطر والبلاء ما حلّ بكفّار مكّة. لقد أساء كل من الفريقين فهم سبب البلاء فذهبوا إلى أنَّ البلاء الّذي حل بهم بسبب وجود محمد ﷺ بين ظهرانَيْهم، وجاء على لسان اليهود كما جاء في الآية الكريمة القول: ﴿يد الله مغلولة﴾ كنايةً عن البخل.

وعلى الفور تردّ عليهم الآية الكريمة وتدعو عليهم[2] في القول: ﴿غُلَّت أيديهم﴾، لذا فالقوم أشدّ خلق الله تعالى بخلاً وأشدّهم حرصاً على حياةٍ أيّ حياة، ولو كانت حياة الهوان الّذي ليس وراءه هوان. وتواصل الآية الكريمة القول عن القوم: ﴿ولعنوا بما قالوا﴾، لقد جاء في آيةٍ كريمةٍ سابقةٍ في القسم القول: ﴿قل هل أنبّئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله. من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطّاغوت. أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عن سواء السَّبيل﴾، ولمّا كان معنى القول: ﴿غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾، قد تحقّق في القوم، فقد أجاز بعضهم أن يكون الكلام

(١) الآيات ٦٩ ــ ٧٢.

(٢) تفسير ابن عطيّة (٤/ ٥٠٩).

على الإخبار عن القوم. يقول ابن عطيّة في تفسيره[1]: «وقوله تعالى ﴿غُلَّت أيديهم﴾ دعاءٌ عليهم. ويحتمل أن يكون خبراً. ويصحّ على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدّنيا، وأن يراد به الآخرة. وإذا كان خبراً عن الدّنيا فالمعنى: غلّت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه. وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى: غُلَّتْ في نار جهنّم. أي: حتم هذا عليهم ونفذ به القضاء، كما حتمت عليهم اللّعنة لقولهم هذا وبما جرى مجراه».

ويُضْرب السّياق عن كلّ كذبٍ للقوم وهراء وذلك في القول: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[2]، إنَّ بل أداةٌ تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه، وتثبت حكمه لما بعدها. أما وقد تمّ السّكوت عن نسبة اليهود عليهم لعنة الله البخل إلى اليد في صيغة المفرد، فإنَّ السّياق في حال إثبات فرط الجود وغاية الكرم يستخدم لفظ اليد في صيغة المثنّى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾، وقد جرت العادة في حقّنا نحن البشر أنَّ الإنفاق باليدين والغرف بالكفّين يمثّلان منتهى الكرم وغاية الجود. وإنَّ ربّ العزّة الّذي لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يسألون ينفق كيف يشاء. وقد جاء في سورة آل عمران[3] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قل اللّهم مالكَ المُلْك تؤتي المُلْك من تشاء وتَنْزِع الملك ممّن تشاء وتُعِزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنَّك على كل شيءٍ قدير. تولج اللّيل في النهار وتولج النهار في اللّيل وتُخْرِج الحيَّ من الميّت وتُخْرج الميت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب﴾.

ومن الأدلّة على القول في الآية الكريمة: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق

(١) (٤/٥٠٩).

(٢) الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٣) الآيتان ٥٤، ٥٥.

كيف يشاء﴾، أنَّ ربّ العزّة اصطفى محمد بن عبد الله ﷺ بالوحي. إنَّ كثيراً من بني إسرائيل لا يزيدهم نزول المزيد من الوحي على المصطفى ﷺ إلاَّ طغياناً وكفراً. أمّا الطغيان فمجاوزة كلّ حدٍّ في البغي والعدوان. وأمّا الكفر فالإصرار على تكذيب المصطفى ﷺ وما أوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم. قال تعالى: ﴿وليزيدنّ كثيراً منهم ما أُنزِل إليك من ربّك طغياناً وكفراً﴾، وإنّما وقف اليهود من المصطفى ﷺ هذا الموقف المناوىء بباعث الحسد له عليه الصَّلاة والسَّلام ولأمّة العرب التي اصطفى الله تعالى منها خاتم النَّبيّين وأشرف المرسلين واصطفاها نواةً لأمّة الإسلام. لقد جاء في إنكار الحسد من بني إسرائيل للمصطفى ﷺ ولقومه العرب قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النساء(١): ﴿أم يحسدون النَّاس على ما آتاهم الله من فضله. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً. فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه وكفى بجهنم سعيراً﴾، إنَّ السّياق ينكر على بني إسرائيل حسدهم للمصطفى ﷺ وللعرب الأمّيّين الّذين بعث الله تعالى فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويطهّرهم ويعلّمهم الكتاب الكريم والسّنة النّبويّة المطهّرة. إنَّ محمد بن عبد الله ﷺ ليس بِدْعاً من الرّسل فقد سبقه عليه الصَّلاة والسَّلام عددٌ كبير في موكب الرّسل الكرام. وإنَّ أمّة العرب ليست بِدْعاً من الأمم فقد بعث الله تعالى النّبيين السّابقين في أممهم. وقد آتى الله سبحانه وتعالى آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكاً عظيماً كيوسف وسليمان عليهما الصَّلاة والسَّلام. إنَّ داء الحسد أصيلٌ في القوم فكما كفر بعض بني إسرائيل بتلك النّعم والآلاء في حقّ آل إبراهيم سابقاً كفروا بها في حقّ محمد ﷺ وأمّته لاحقاً.

---

(١) الآيتان ٥٤ و ٥٥ .

وهل أهل الكتاب هؤلاء الّذين يحسدون المصطفى ﷺ وأمّته يحبّ بعضهم بعضاً؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾، إنَّ ما بين بعض فئات اليهود وبين بعض الفئات الأخر عداوةٌ وبغضاء. ولمّا كان سبب العداوة والبغضاء هو البغي والعدوان فقد زادهم الله تعالى عداوةً وبغضاء إلى يوم القيامة.

وينبغي أن تكون عداوتهم وبغضاؤهم للمؤمنين هي الأقوى وهي الأشدّ. وإلى ذلك النّوع من العداوة والبغضاء للمصطفى ﷺ وللمؤمنين جاء القول في الآية الكريمة: ﴿كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، ويلاحظ أنَّ الآية الكريمة تنصّ على أنَّ إطفاء الله تعالى نار الحروب التي يوقدها اليهود ضدّ المصطفى ﷺ وضدّ المسلمين بعدد مرّات الإيقاد الكثيرة والمتعمّدة.

وهل وقفت عداوة بني إسرائيل عند حدّ نبيّ الإسلام وأمّة الإسلام؟ الجواب في الجزئيّة الكريمة التّالية: ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ وانظر إلى جملة «يسعون» التي تصوّر القوم يسعون مشمّرين من أجل الإفساد في أرض الله تعالى الواسعة الطويلة العريضة. وذلك دليلٌ على أنَّ القوم أعداءٌ للإنسانيّة كلّها وأنّهم يتربّصون بالجميع الدّوائر.

وفي الجزئيّة الكريمة الأخيرة: ﴿والله لا يحبّ المفسدين﴾، يكون الحكم من الله تعالى بالطّرد من رحمته وبالغضب عليهم والعياذ بالله.

ولمّا كان المنتظر من أهل الكتاب، اليهود والنّصارى بعامّة، أن يترجموا إلى عمل تعاليم كل من التّوراة والإنجيل، وفيهما الأمر باتّباع محمد بن عبد الله ﷺ حينما يبعث، فإنَّ الآيتين الكريمتين التّاليتين بيّنتا ذلك المنتظر وعيّنتا ذلك الواجب وهاتان هما:

الآيتان رقم (٦٥، ٦٦)

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

إنَّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنَّ أهل الكتاب من اليهود أتباع موسى عليه السَّلام كبير أنبياء بني إسرائيل والنَّصارى أتباع عيسى عليه السَّلام آخر أنبياء بني إسرائيل لو أنَّهم آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالتَّوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام، وفيها نعت محمد بن عبد الله ﷺ والأمر باتّباعه، وبالإنجيل الّذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السَّلام، وفيه نعت محمد بن عبد الله ﷺ والأمر باتّباعه، ولو أنَّ أهل الكتاب من يهود ونصارى اتّقوا الله تعالى حقّ تقاته في السّرّ والعلن بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي لكفّر الله سبحانه وتعالى سيّئاتهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم وستر عيوبهم ولشملتهم رحمته جلّ وعلا التي وسعت كل شيء ولأدخلهم جلّ وعلا جنّات النَّعيم المقيم.

وإنَّ الآية الكريمة الأخرى تقرّر أنَّ أهل الكتاب لو أنَّهم أقاموا التّوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم جلّ وعلا بواسطة محمد بن عبد الله ﷺ من قرآنٍ مجيد لأكلوا من فوقهم ممّا ينزل عليهم من بركات السّماء ومن تحت أرجلهم ممّا يخرج من بركات الأرض. لقد كان الواجب على كلّ أهل الكتاب أن يتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذي يجدون نعته مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل. إنَّ أمّةً محدودة العدد من أهل الكتاب هي المقتصدة وهي المعتدلة. إنَّ هذه هي صفتها حينما كانت على اليهودية وعلى

النصرانية، وبخاصةٍ فيما يتّصل بعيسى عليه السّلام فهو عبد الله تعالى ورسوله. وإنَّ هذه هي صفتها حينما اعتنقت دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمد بن عبد الله ﷺ خير الأنام. أمّا أكثر أهل الكتاب فإنَّهم فاسقون خارجون عن الصراط المستقيم بئس ما يأتون من أفعال وساء ما يعملون. إنَّ كل ما يأتون من أعمال سيِّىءٌ وقبيح وبخاصَّةٍ صدّهم عن سبيل الله تعالى ودينه القويم وصراطه المستقيم. وإذا كان صدّهم عن سبيل الله تعالى غايةً في السّوء فكيف بأعمالهم الإجراميّة التي يرمون من ورائها إلى إخراج المسلمين من دين الإسلام دين العقيدة الصَّافية والتَّوحيد إلى الكفر والشّرك مع الله تعالى غيره. لا شكّ أنَّ هذا العمل له من صفة السّوء أكبر نصيب.

● ● ●

- ١١ -

على الرسول البلاغ وعلى الناس الاتباع
وإن غلاة النصارى كافرون
وإن كافري اليهود ملعونون

الآيات (٦٧ - ٨١)

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ
يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ
حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ
وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ
بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ
وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا
يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ
ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا
مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ
ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ
ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ
أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن
قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾

كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

من خصائص المصطفى ﷺ أنَّ رسالته إلى النَّاس كافَّة، لذا فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يؤمر بأن يبلِّغ النّاس كلّ ما أُنْزل عليه من ربّه جلّ وعلا. ومع أنَّ إبلاغ الرّسالة كلّ النّاس عمليةٌ شاقَّة وخطرة، فإنَّ ربّ العزّة يعصمه عليه الصَّلاة والسَّلام من النّاس الكافرين الّذين يزيدهم الله تعالى عمىً إلى عماهم بسبب إصرارهم على الكفر. ومن الّذين تشملهم دعوة المصطفى ﷺ اليهود والنَّصارى الّذين يقال لهم على لسان المصطفى ﷺ إنَّهم ليسوا على شيءٍ من الدّين معتدٍّ به حتى يقيموا التَّوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم جلّ وعلا وهو القرآن الكريم الموحى به إلى خاتم النّبيّين ﷺ. وممّا جاء في التَّوراة والإنجيل نعت النّبيّ ﷺ والأمر باتّباعه عليه الصَّلاة والسَّلام. والعجيب في أمر أهل الكتاب أنَّ كثيراً منهم يزداد طغيانه وكفره بمقدار ما يوحي الله تعالى من قرآنٍ كريم إلى خاتم النَّبيّين وأشرف المرسلين. إنَّ على اليهود والنَّصارى وكذلك الصَّابئون، أن يحذوا حذو المؤمنين من أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ بأن يسلموا ويؤمنوا بالله تعالى وباليوم الآخر ويعملوا صالحاً وبذلك لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون أمامهم ولا هم يحزنون على ما تركوه خلفهم. ويتحدّث السياق بعد ذلك عن بني إسرائيل باعتبارهم سكّان منطقة المدينة المنوّرة وعن النَّصارى باعتبارهم أهل كتاب غالين في عيسى عليه السَّلام وأمّه. إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ العهد المؤكّد من بني إسرائيل بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له،

وأرسل إليهم الكثير من الرّسل الّذين كذّبوهم أو قتلوهم. لقد ظنَّ بنو إسرائيل أنَّ الله سبحانه وتعالى لن يختبرهم ولن يعاقبهم فعموا عن رؤية طريق الهدى وصمّوا عن سماع صوت الحقّ سماع قبول، ثمّ قبل الله تعالى توبتهم ثمَّ أصاب العمى والصّمم كثيراً منهم: ﴿والله بصيرٌ بما يعملون﴾.

وبشأن النّصارى لقد كفر الّذين قالوا إنَّ الله هو المسيح ابن مريم مخالفين قول المسيح عليه السّلام وأمره لهم بأن يعبدوا الله تعالى ربّه عليه السّلام وربّهم وتحذيره بأنَّ من يشرك بالله تعالى فقد حرَّم الله تعالى عليه دخول الجنَّة ومأواه النّار لارتكابه الظلم العظيم وهو الشّرك فليس له من دون الله تعالى من وليٍّ ولا نصير. وكما قرَّر السياق كفر الّذين قالوا إنَّ الله هو المسيح ابن مريم قرّر كفر الّذين قالوا إنَّ الله سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة آلهة. وكما خالف النَّصارى أوامر المسيح عليه السّلام التي جاءت في الآية الكريمة السابقة خالفوا أوامر الله تعالى في هذه الآية الكريمة التالية فأشركوا مع الله تعالى سواه، ولم ينتهوا عمّا يقولون من كفر فاستحقّوا العذاب الأليم، ولم يتوبوا إلى الله تعالى ولم يستغفروه جلّ وعلا وهو الغفور الرَّحيم. وإنَّ السياق الّذي ينفي عن عيسى عليه السّلام وأمّه الألوهية يثبت لكلٍّ منهما أرفع نعم الله تعالى على كلٍّ منهما. أمّا عيسى عليه السّلام فقد أنعم الله تعالى عليه بنعمة الرّسالة كبرى نعم الله تعالى على المصطفين من عباده جلّ وعلا الأخيار. وأمّا مريم البتول فقد أنعم الله تعالى عليها بنعمة الصّدّيقيّة كبرى نعم الله تعالى بين يدي درجة النبوة التي تأتي بدورها بين يدي درجة الرّسالة. ويقدّم السياق الدليل الأكيد على بشرية عيسى وأمه عليهما السّلام وهو أكلهما الطعام الّذي ينبغي عليهما أن يتخلّصا من فضلاته. ويعجب السياق من الإصرار على الضّلال رغم تبيين الآيات

الواضحات، وينكر على القوم إصرارهم على عبادة ما لا يملك لهم ولا لغيرهم ضرّاً ولا نفعاً وعلى إشراك هذه الآلهة المزعومة مع السّميع العليم في العبادة، وينهاهم عن الغلوّ في عيسى عليه السّلام وأمّه وعن اتّباع القوم الضالين من يهود وآباء الّذين أضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل ووسط الطريق.

وإذا كان كافرو بني إسرائيل من أتباع عيسى عليه السّلام ضالين، فإنَّ كافري بني إسرائيل من أتباع موسى عليه السّلام ملعونون ومغضوبٌ عليهم. إنَّ الّذين كفروا من بني إسرائيل من أتباع موسى عليه السّلام لعنوا على لسان داود وعيسى عليهما السّلام بسبب عصيانهم وعدوانهم. أمّا السبب في ذلك فإنهم كانوا لا ينهي بعضهم بعضاً عن منكرٍ فعلوه ومعصيةٍ ارتكبوها، وما أكثر ما كانوا يرتكبون من معاصٍ وآثام. ومن المنكر الّذي ارتكبوه على عهد المصطفى ﷺ أنَّ كثيراً منهم اتَّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. إنَّ ذلك الاتّخاذ زيّنته لهم أنفسهم فاستحقوا غضب الله تعالى الشديد وعذابه الأليم الخالد. لقد كان الأَوْلى بهؤلاء أن يتَّخذوا المؤمنين أولياء بدلاً من المشركين بعد أن يؤمنوا بالله تعالى ربّاً وبالنَّبيّ ﷺ إماماً وبالقرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى إليه دستوراً، وبالإسلام ديناً. إنَّ القوم اتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأنَّ أكثرهم فاسقون.

• • •

الآية رقم (٦٧)

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

هذه هي المرة الثانية والأخيرة في المصحف الشريف التي ينادي فيها ربّ العزّة حبيبه المصطفى ﷺ بصفة الرّسالة، أهمّ مظاهر الفضل العظيم من الله تعالى على هذا النّبيّ الكريم: ﴿يا أيّها الرّسول﴾، أمّا الموضع الأوّل فإنه في الآية الكريمة الحادية والأربعين من سورة المائدة الكريمة أيضاً. قال تعالى: ﴿يا أيّها الرّسول لا يحزنك الّذين يسارعون في الكفر من الّذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾.

والمعروف أنّ المصطفى ﷺ هو النّبيّ الوحيد الّذي ينادَى في القرآن الكريم بواحدةٍ من صفتيه العظيمتين، صفة النبوّة وصفة الرّسالة. وما أكثر المواضع في القرآن الكريم التي نودي فيها المصطفى ﷺ بالقول: ﴿يا أيّها النّبيّ﴾، وفي أثناء دراستنا للآية الكريمة الحادية والأربعين من هذه السّورة الكريمة سبق أن أشرنا إلى بعض مظاهر فضل الله تعالى على هذا الرّسول الكريم في مجال رفع الذّكر، وقد قال تعالى[1]: ﴿ألم نشرح لك صدرك.

---

(١) سورة الشرح: الآيات ١ ــ ٤.

ووضعنا عنك وِزْرَك الّذي أنقض[1] ظهرك. ورفعنا لك ذِكْرَك﴾.

إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه المصطفى ﷺ أن يبلّغ ما أنزل الله تعالى إليه من قرآن مجيدٍ وذكرٍ حكيم. ويلاحظ أنّ التعبير يجيء في صيغة المبني للمفعول وذلك في القول: ﴿أُنْزِل إليك﴾، إنّ ربّ العزّة هو الّذي أنزل الكتاب العزيز على المصطفى ﷺ بواسطة جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى على وحيه. وإنّ المعنى اللّطيف الّذي يُفْهَم من صيغة المبني للمفعول في القول: ﴿أُنْزِل إليك﴾، يذكّرنا بالمعنى اللّطيف ذاته الّذي يُفْهم من الحديث عن المصطفى ﷺ في صيغة الغائب وليس المخاطب وذلك في القول[2]: ﴿عَبَس وتولّى. أن جاءه الأَعْمى﴾، وذلك في مجال رفع الذّكر.

وإنّ الّذي أضاف إلى لطف صيغة المبني للمفعول لطفاً آخر مجيء لفظ الرّبّ المضاف إلى ضمير المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ: ﴿بلّغ ما أُنْزِلَ إليك من ربّك﴾، والمعروف أنّ لفظ الربّ إنّما يُسْتَعْمل في القرآن الكريم في مواطن الخصوص، وفي مناسبات السرور والبهجة والحبور، وحينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الرّضا والامتنان، وحينما يراد تنبيه العبد إلى تربية الله تعالى له بنعمه وآلائه وإلى وجوب القيام بما يجب عليه في المقابل من شكرٍ لله تعالى كي تدوم بإذن الله تعالى النّعم وتزيد الآلاء ورفع الذّكر.

ويلاحَظُ أنّ منتهى ما يؤمر به المصطفى ﷺ هو البلاغ، والبلاغ فقط. أمّا نتائج البلاغ وثمرته، وأمّا استجابة المبلَّغين أو عدم استجابتهم فإنّ كلّ

---

(١) انقض: أثقل.

(٢) سورة عبس: الآيتان ١، ٢.

ذلك موكولٌ إلى الله تعالى وخارجٌ عن مهمّة الرّسول المبين ﷺ. والمعروف أنَّ المصطفى ﷺ قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لأمّته النّاصح الأمين صلوات الله تعالى وسلامه عليه إلى يوم الدّين.

وبعد أمر الله تعالى حبيبه المصطفى ﷺ بتبليغ الرّسالة كاملةً يجيء القول: ﴿وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾، إنَّ الرّسالة يجب أن تبلّغ كاملةً غير منقوصةً وإلاّ كان البلاغ كلا بلاغ لأنَّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ. وكما ينبغي أن يبلَّغ كاملاً ينبغي أن يُقْبَلَ كاملاً. عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدَّثك أنَّ محمّداً ﷺ كتم شيئاً مِمّا أُنزِل عليه فقد كذب والله يقول: ﴿يا أيُّها الرّسول بلّغ ما أُنزِل إليك...﴾ الآية[1]، هكذا رواه البخاري ههنا مختصراً وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطوّلاً وكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان والترمذي والنّسائي في كتاب التّفسير من سننهما من طرق عن عامر الشّعبيّ عن مسروق بن الأجدع عنها رضي الله عنها. وفي الصّحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمّد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية[2]، وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه[3]، وقال عمرو بن مسعود وعائشة والحسن: ما أنزل الله على رسوله آيةً أشدّ عليه من هذه الآية[4].

وقال البخاري رضي الله عنه قال الزّهري: مِنَ الله الرّسالة وعلى الرّسول البلاغ وعلينا التّسليم. وقد شهدت له أمّته بإبلاغ الرّسالة وأداء

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٦٦).
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧).
(٤) تفسير القرطبي (٥٢٧١).

الأمانة واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجّة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحوٌ من أربعين ألفاً كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: أيّها النّاس إنّكم مسؤولون عنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فجعل يرفع أصبعه إلى السّماء وينكّسها إليهم، ويقول: اللّهمّ هل بلّغت؟ قال الإمام أحمد حدّثنا ابن نمير، حدثنا فضيل يعني ابن غزوان عن عكرمة، عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: يا أيُّها النّاس، أيّ يومٍ هذا؟ قالوا: يومٌ حرام. قال: أيّ بلدٍ هذا؟ قالوا: بلدٌ حرام. قال: فأيّ شهرٍ هذا؟ قالوا: شهرٌ حرام. قال: فإنَّ أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. ثمّ أعادها مراراً ثمّ رفع أصبعه إلى السّماء فقال: اللّهم هل بلّغت؟ مراراً. قال: يقول ابن عباس والله لوصيّة إلى ربّه عزّ وجلّ ثمّ قال: ألا فليبلّغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض[1].

وعلى الرّغم من كلّ الصّعاب التي صادفها المصطفى ﷺ، والعقبات التي تخطّاها، والمخاطر التي تعرّض لها فقد عصمه الله تعالى من النّاس ومن أعدائه عليه الصّلاة والسّلام جميعاً. قال تعالى: ﴿والله يعصمك من النّاس﴾، ويلاحظ مجيء الجملة في صيغة الزّمن المضارع الّذي يدلّ على الحال وعلى الاستقبال. روى الإمام أحمد أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تحدّث أنَّ رسول الله ﷺ سهر ذات ليلةٍ وهي إلى جنبه قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧).

اللّيلة. قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السّلاح فقال: من هذا؟ فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه: أخرجاه في الصّحيحين(١).

وحينما نزلت الآية الكريمة استغنى المصطفى ﷺ عن الحرس ثقةً بربّه جلّ وعلا. عن عائشة، قالت: كان النّبيّ ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية: والله يعصمك من النّاس. قالت: فأخرج النّبيّ ﷺ رأسه من القبّة وقال: يا أيّها النّاس انصرفوا فقد عصمني الله عزّ وجلّ(٢).

وإنّما كان المصطفى ﷺ يجاهد الكافرين ويأخذ حذره منهم. وإذا كان ربّ العزّة قد عصم المصطفى ﷺ من الكافرين جميعاً، وفي ذلك الدّليل لهؤلاء الكافرين على أنّه ﷺ رسول ربّ العالمين، فإنّ أولئك الكافرين أصرّوا على كفرهم وقد زادهم الله تعالى إلى عماهم عمى. إنّ هذه المعاني عبّرت عنها الآية الكريمة في جزئيتها الأخيرة: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

ولمّا كان أهل الكتاب في مجموعهم لم يمتثلوا تعاليم التّوراة والإنجيل اللّذين فيهما نعت المصطفى ﷺ والأمر باتّباعه، ومن باب الأولى أنّهم لم يمتثلوا تعاليم القرآن الكريم فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية في هذه المعاني، فإلى:

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٧٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٧٨).

الآية رقم (٦٨)

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

إنَّ أوَّل ما يلفت الانتباه هو التّشابه في القول: ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزِل إليك من ربّك طغياناً وكفراً﴾، بين هذه الآية الكريمة التي تخاطب أهل الكتاب بعامَّة، وبين الآية الكريمة الرابعة والستين من السورة الكريمة، وهي الآية الكريمة التي تتحدَّث عن اليهود على جهة الخصوص الّذين تجرّأوا على الله تعالى وقالوا: ﴿يد الله مغلولة. غُلّت أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا﴾.

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى إنّكم لستم على شيءٍ من الدّين معتدٌّ به(١)، ومعتمدٍ عليه حتَّى تقيموا التّوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السَّلام، والإنجيل الّذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام، وفي كلٍّ منهما الأمر باتّباع محمّد بن عبد الله النَّبيّ الأمّيّ حينما يبعث عليه الصَّلاة والسَّلام، وحتَّى تقيموا ما أنزل إليكم من ربّكم، عن مجاهد: يعنى القرآن العظيم(٢)، المصدّق لكلٍّ من التّوراة والإنجيل المهيمن عليهما الشهيد بأنَّهما موحىً بهما من الله تعالى.

وكما اتَّجه الأمر في جملة: «قل» إلى المصطفى ﷺ اتّجه إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمَّة المحمّدية.

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٠).

وإنَّ ما قيل من ذي قبل يقال هنا بشأن القول: ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفرا﴾.

وتنهي الآية الكريمة في جزئيّتها الأخيرة المصطفى ﷺ عن أن يأسى على القوم الكافرين وأن يحزن لانصرافهم عن الصّراط المستقيم، وأن تذهب نفسه حسراتٍ لإيثارهم الضّلالة على الهدى والعذاب على المغفرة: ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾، فلا تأس: فلا تحزن. يقال: أَسِيَ فلانٌ على كذا إذا حزن يأسى أسىً[1].

وما المطلوب من النّاس أن يفعلوا كي يكونوا من الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؟ الجواب في الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٦٩)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

من البيِّن أنَّ الآية الكريمة تقدم في الذّكر الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً. إنَّ هؤلاء هم الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون لأنّهم يؤمنون بالله تعالى ويؤمنون باليوم الآخر ويعملون من أجل ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود. وإنَّ واجب الفئات المذكورة بعد ذلك في الآية الكريمة أن تحذو حذو الفئة الأولى. وهذه الفئات هي فئة الّذين هادوا، وهم اليهود أتباع موسى عليه السّلام، وفئة الصّابئين، ويلاحظ رفعهم من الوجهة الإعرابيّة تنويهاً بشأنهم. وهم فرقةٌ من اليهود ومن النّصارى، ويصحّ أن يكونوا قد نجوا من

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٠٠).

غلوّ كلٌّ من اليهود في عزير والنَّصارى في المسيح عليه السَّلام. وقد قال تعالى[1]: ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النَّصارى المسيح ابن الله﴾، وقيل لكلّ خارجٍ من الدّين إلى دينٍ آخر صابىءٌ من قولهم صبأ ناب البعير إذا طلع[2]، وهم فرقةٌ من أهل الكتاب[3]، ويقول القرطبيّ[4]: «والّذي تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنّهم موحّدون معتقدون تأثير النّجوم وأنّها فعّالة».

وإنّما ذهبنا إلى أنَّ رفع: «الصّابئون» من الوجهة الإعرابيّة دليلٌ على تميّزهم بعقيدة التَّوحيد استناداً على تميّز الصّابرين في الآية الكريمة السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة من الوجهة الإعرابية دليلاً على تميّز صفة الصّبر والتَّحلّي بها. قال تعالى: ﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قِبَلَ المَشْرِق والمغرب ولكنّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكةِ والكتابِ والنَّبيّين وآتى المال على حبّه ذوي القُرْبى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفي الرِّقاب وأقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصّابرين في البأساء والضّراء وحين البأس. أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتَّقون﴾، وكذلك استناداً على تميّز المقيمين الصَّلاة في الآية الكريمة الثانية والستين بعد المائة من سورة النّساء من الوجهة الإعرابية دليلاً على تميّز صفة الإقامة للصَّلاة بكلّ شروطها والتَّحلّي بها. قال تعالى:

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «صبا» (٢٧٤).

(٣) انظر تفسير القرطبي (٣٧٠)؛ وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٤)؛ وتفسير الطبري (١/ ٢٥٢).

(٤) تفسير القرطبي (٣٧٠).

﴿لكن الرَّاسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزِل إليك وما أُنزِل من قبلك والمقيمين الصَّلاةَ والمؤتون الزّكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾.

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة فئات المؤمنين وهم المسلمون أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ واليهود والصّابئين ذكرت النصارى أتباع عيسى عليه السَّلام، ثمّ اشترطت الآية الكريمة إيمان كلّ هؤلاء بالله تعالى وباليوم الآخر:

وكيف يتمّ إيمان هؤلاء بالله تعالى وباليوم الآخر؟ يتمّ باتّباعهم جميعاً خاتم النَّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ الّذي أرسله الله تعالى بالصّورة الأخيرة والكاملة من دين الإسلام الّذي لا يقبل الله تعالى من أيّ عبدٍ ديناً سواه. إنَّ هؤلاء جميعاً حينما يتّبعون الرّسول النَّبيّ الأمّي الّذي لا ينطق عن الهوى سيكونون بعون الله تعالى جزءاً لا يتجزَّأ من خير أمَّةٍ أخرجت للناس وهؤلاء بإذن الله تعالى لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون في سفرهم إلى الله تعالى لأنَّ الآخرة في حقّهم خيرٌ من الأولى، ولا هم يحزنون على ما تركوا خلفهم في هذه الدّار الأولى من أهلٍ وولدٍ ومالٍ وجاه. إنَّ كلّ ما في هذه الحياة الأولى ليس شيئاً بالقياس إلى ما في الحياة الآخرة من نعيمٍ مقيم.

ولمّا كان الّذين هادوا هم الفئة التي صادف المصطفى ﷺ والمؤمنون في المدينة المنوّرة تعنّتها من بين الفئات المذكورة في الآية الكريمة، فقد تحدَّثت الآيتان الكريمتان عن هذه الفئة وهاتان هما:

الآيتان رقم (٧٠، ٧١)

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

مستخدمةً نون العظمة في جملتي «أخذنا» و: «وأرسلنا»، تقرّر الآية الكريمة الأولى أنَّ ربّ العزَّة قد أخذ ميثاق بني إسرائيل، وأرسل إليهم رسلاً. ويلاحظ مجيء لام القسم لقسمٍ مقدّر ومجيء حرفِ التحقيق قد وذلك في القول: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾، والميثاق هو العهد المؤكّد بيمين وعهد[1]، وإنَّ هذا القول الموجز هنا يذكّرنا بالقول المفصّل في معناه الذي جاء في الآية الثانية عشرة من السورة الكريمة. قال تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً. وقال الله إنّي معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزّكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حَسَناً لأكفّرنَّ عنكم سيّئاتكم ولأدخلنّكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾، وبهذا يكون الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل متعلّقاً بتوحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة.

ولمّا كان أخذ الميثاق يتمّ في صورةٍ من أقوى صور أخذه عن طريق رسل الله تعالى المصطفين الأخيار عليهم صلوات الله تعالى وسلامه فقد

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «وثق» (٥١٢).

أردف أخذ الميثاق من بني إسرائيل بإرسال الرّسل إليهم: ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾.

ويلفت النَّظر كثرة الرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى بني إسرائيل. ولمّا كان الرسول بمثابة الطبيب فقد دلَّتْ الرسل إلى بني إسرائيل على كثرة عللهم واحتياجهم المستمرّ لمن يعالج أدواءهم المعنويَّة حاجة من اصطلحت عليه العلل وأقعده المرض إلى العلاج الدائم والأطبّاء المستمرّين.

والجزئيَّة الكريمة التّالية تبيِّن هذا المفهوم وتؤكّده. قال تعالى: ﴿كلّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون﴾، ويلفت النَّظر مجيء الظرف كلّما وهو بمعنى حين متضمّنٌ معنى الشرط متعلّق بالجواب. والجواب هنا جملة كذّبوا. وإنَّ الظرف كلّما يذكّرنا بسابق مجيئه في الآية الكريمة الرابعة والستين من السورة الكريمة: ﴿كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، وكما كان إطفاء الله تعالى نار الحرب التي يوقدونها ضدّ نبيّ الإسلام والمسلمين بعدد مرات الإيقاد كان تكذيب بني إسرائيل الرسل أو قتلهم. وانظر إلى جملة جاء في القول: ﴿كلّما جاءهم رسول﴾، التي تدلّ على المجيء الفعليّ وعلى الوصول إليهم ودعوتهم والالتقاء بهم وجهاً لوجه. ويتّخذ بنو إسرائيل موقف التّكذيب أو القتل من الرّسل حينما يأتونهم بما لا تهوى أنفسهم. وهنا يبرز سؤال: وهل رضي بنو إسرائيل قلباً وطابوا نفساً لأيّ رسولٍ أرسله الله تعالى. إنَّ لدينا أوضح الأمثلة في هذه السورة الكريمة موسى عليه السَّلام ومحمد بن عبد الله ﷺ. لقد جاء على لسانهم القول الذي يدلّ على جراءتهم على موسى عليه السَّلام بل على الله تعالى وذلك في الآية الكريمة الرابعة

والعشرين من السورة: ﴿قالوا يا موسى إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾.

وهل رضي بنو إسرائيل بحكم الله تعالى في الزَّاني المحصن على نحو ما جاء في التَّوراة وعلى لسان نبـيّ الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ؟ إنَّهم لم يرضوا بذلك الحكم إنَّما كانوا حريصين على أن يوافق النَّبـيّ ﷺ على الحكم الذي ابتدعوه في حقّ الزاني المحصن مخالفاً لحكم التوراة ولحكمه عليه الصَّلاة والسَّلام الذي أنزله الله تعالى إليه. لقد جاء على لسانهم في الآية الكريمة الحادية والأربعين القول: ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾، والمعنى: إن آتاكم محمد ﷺ هذا الحكم الذي ابتدعتموه في حقّ الزَّاني المحصن من الجلد مائة جلدة والتَّحميم بمعنى تلطيخ الوجه بالفحم وإركاب الزَّاني على حمار ووجهه باتّجاه دبر الحمار فاقبلوا ذلك الحكم وإن حكم بغير ذلك فاحذروا قبول ذلك الحكم!

وهكذا يتبيَّن أنَّ موقف بني إسرائيل من كلّ رسل الله تعالى إليهم التَّكذيب أو القتل.

إنَّ الآية الكريمة تجعل من أولئك المرسلين إلى بني إسرائيل فريقين: ﴿فريقاً كَذَّبوا وفريقاً يقتلون﴾، لقد جاءت جملة كَذَّبوا في صيغة الزَّمن الماضي إشعاراً بأن بني إسرائيل كذَّبوا ذلك الفريق من رسل الله تعالى الكرام واكتفوا بالتَّكذيب ولم يتجاوزوه إلى ما وراءه. ويصحّ أن يكونوا قد تجاوزوه إلى ما دون مرتبة القتل.

أمّا الفريق الآخر فقد قتلوه كزكريّا ويحيـى عليهما السَّلام. ومن المعروف أنَّ قتل النَّبيّين يسبقه تكذيبهم. فكأنَّ كل الرسل قد كذَّبهم بنو إسرائيل أمّا القتل فقد كان نصيب بعضهم.

ومع أنَّ الفاصلة هي التي جعلت القول في هذه الصيغة: ﴿فريقاً كَذَّبوا وفريقاً يقتلون﴾، وليس في هذه الصيغة: فريقاً كذّبوا وفريقاً قتلوا، خاصَّةً وأنَّ آخر محاولاتهم في القتل كانت في حقّ عيسى عليه السَّلام الذي يفصل بينه وبين خاتم النَّبيّين وأشرف المرسلين زهاء خمسمائة وسبعين عاماً، فإنَّ صيغة الزمن المضارع «يقتلون» قادرةٌ على إضافة الجديد والمفيد من المعاني.

إنَّ صيغة الزَّمن المضارع: «يقتلون» تدلّ على الاستمرار وعلى التّجدّد، كما تدلّ على أنَّ الرغبة في قتل النَّبيّين في أعماق نفوس القوم وأنَّ خَلْف السّوْء ورثها من آباء السَّوْء بدليل محاولة بني إسرائيل المتكرّرة قتل المصطفى ﷺ ومنها محاولة قتله ﷺ غدراً حينما ذهب عليه الصَّلاة والسَّلام يستعين بني النَّضير في دية قتيلين[1]، ومنها محاولة قتله ﷺ بالشَّاة المسمومة[2]، لقد عصم الله تعالى حبيبه المصطفى ﷺ من بني إسرائيل ومن سائر أعداء الله تعالى مصداقاً لقوله جلّ وعلا[3]: ﴿والله يعصمك من النَّاس﴾.

ومن البيِّن أنَّ بني إسرائيل قد كذّبوا في مجموعهم المصطفى ﷺ رغم وجود نعته عليه الصَّلاة والسَّلام في الكتاب السماوي الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام كبير أنبياء بني إسرائيل وهو التّوراة.

والآية الكريمة التّالية تقرّر أن بني إسرائيل الذين كذّبوا فريقاً من المرسلين وقتلوا فريقاً آخر حسبوا ألاَّ تكون فتنةٌ من الله تعالى لهم وظنّوا ألاَّ

---

(١) انظر أسباب النزول للنيسابوري (٤٧٩).

(٢) انظر السيرة النبوية (حلبي) تصوير بيروت (٣/ ٣٥٢).

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٧.

يكون بلاءٌ من الله تعالى لهم وعذابٌ وتمحيص. إنَّهم بدلاً من أن يعودوا إلى الله تعالى ويتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً واصلوا كيدهم واستمرأوا غيّهم. ولمّا كان ثمّة طريقان، طريق النّور والهدى والرّشاد وطريق الظَّلام والضَّلال والفساد، وقد جرت العادة بشأن الهداية في المحسوسات الاعتماد على حاسة البصر ابتداءً، فإذا تعطَّلت أو عجزت عملت الحاسة الأخرى التي تليها في مثل هذه الأحوال والتي تعمل في الظَّلام أعني حاسة السمع، لذا جاء في السياق ذكر ما يفيد تعطيل هاتين الحاسّتين عن العمل على التّوالي: ﴿فعموا وصمّوا﴾.

وإذا كان الحديث في ظاهره عن هاتين الحاسّتين اللّتين تتعاملان مع النّور والظلمة في حقّ أولاهما ومع السّماع وعدم السّماع أو الصَّمم في حقّ أخراهما، فإنَّه في الحقيقة حديثٌ عن البصيرة التي ترى نور الهداية حينما تكون بصيرةً نيّرة وذلك على غرار العين التي ترى النور في المحسوسات حينما تكون مبصرة، ولا ترى نور الهداية حينما تعمى ـ والعياذ بالله ـ القلوب التي في الصدور، كما أنَّه في الحقيقة حديثٌ عن الأذن الواعية التي تسمع سماع تدبّر القول فتتّبع أحسنه. أمّا في حالة الصَّمم المعنويّ ـ والعياذ بالله ـ فإنَّ صاحبها ينحطّ إلى درك الأنعام التي لا تسمع من راعيها وداعيها إلاَّ دعاءً إن كان قريباً منها أو نداءً إن كان بعيداً عنها دون أن تعي من الدّعاء أو النّداء شيئاً. بل إلى دركٍ أحطّ من الأنعام وأضلّ لأنَّ الأنعام التي لا عقل لها تحرص بغريزتها على ما ينفعها أمّا أعمى البصيرة الأصمّ عن سماع صوت الحقّ الذي له عقل، فإنَّه يعطّل عقله فينحطّ إلى درك الأنعام ويحرص بسفهه على ما يضرّه ولا ينفعه وبذلك هو ينحطّ عن درك الأنعام.

وبعد عمى بني إسرائيل وصممهم وابتلاء الله تعالى لهم وأخذهم بذنوبهم يعودون إلى الله تعالى ويتوبون إلى الله تعالى توبةً نصوحاً فيتوب الله تعالى عليهم بمعنى أنَّه جلّ وعلا يقبل توبتهم[1]، وقد قال عزّ من قائل[2]: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيِّئات ويعلم ما تفعلون﴾.

وانظر إلى حرف العطف «ثم» الدالّ على التّرتيب مع التَّراخي في القول: ﴿فعموا وصمّوا ثمَّ تاب الله عليهم ثمّ عموا وصمّوا كثيرٌ منهم﴾، وذلك في مقابل فاء العطف الدالّة على التَّرتيب مع التَّعقيب في القول: ﴿وحسبوا ألاَّ تكون فتنةٌ فعموا وصمّوا﴾.

إنَّ عمى بني إسرائيل وصممهم كان مباشرةً بعد ظنّهم غير المصيب بأنَّ الله سبحانه وتعالى لن يجازيهم ولن يبلوهم بالشّرّ والخير فتنة. ولم يفق بنو إسرائيل من عمى البصيرة ومن الصَّمم المعنوي إلاَّ بعد لأي وجهدٍ جهيد وتعب أكيد. وقد أفاد هذه المعانِيَ حرفُ العطف ثمَّ في القول: ﴿ثمَّ تاب الله عليهم﴾، وكما احتاجوا وقتاً طويلاً كي يتوبوا احتاجوا وقتاً طويلاً كي يعودوا إلى سابق عمى البصيرة والصَّمم المعنويّ، وإنَّما احتاجوا ذلك الوقت الطويل كي ينسوا، لأنَّ التّجربة مريرة والمحنة قاسية. ويبدو أنَّ تلك التَّجرية أو المحنة كان لها دائم الأثر لدى بعض بني إسرائيل والقليل منهم ولذلك جاء النَّص في المرَّة الأخرى من العمى والصَّمم على أنَّ ذلك كان من نصيب كثيرٍ منهم وليس من نصيب جميعهم كما حدث في المرَّة الأولى: ﴿ثمّ عموا وصمّوا كثيرٌ منهم﴾.

---

(١) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «توب» (٧٦).

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٥.

ومن الجائز أن يكون هذا القليل من بني إسرائيل الذين لم يعودوا إلى العمى والصَّمم بعد قبول الله تعالى توبتهم هم النّواة لأولئك الذين بادروا إلى الدّخول في دين الإسلام حينما بعث الله تعالى محمد بن عبد الله ﷺ رسول الإسلام والسلام.

وفي التّذييل: ﴿والله بصيرٌ بما يعملون﴾، تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى بصيرٌ بما يعمل بنو إسرائيل في حال عماهم وصممهم أوّل مرة، وفي حال توبتهم وأوبتهم إلى الله تعالى، وفي حال عمى أكثرهم وصممه في المرَّة الآخرة وفي كلّ مرَّةٍ من المرَّات إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء وسيجازى كلاًّ بما يفعل ويستحقّ من جزاء ومن ذلك ضرب الله تعالى الذّلّة والمسكنة على بني إسرائيل إلى يوم الدّين وتسليط الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

وكما لازم العمى والصَّمم كثيراً من بني إسرائيل أتباع موسى عليه السَّلام لازم الكافرين من أتباع عيسى عليه السَّلام الذين غلوا فيه عليه السَّلام. لقد أشار السياق إلى غلوّ أتباعه عليه السَّلام فيه، وأرشدهم إلى باب التَّوبة المفتوح على مصراعيه إلى يوم الدّين، وبيّن لهم حقيقة عيسى عليه السَّلام وأمّه مريم البتول، وأنكر عليهم عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع، ونهاهم عن الغلوّ في دينهم. لقد كان ذلك في:

الآيات رقم (٧٢، ٧٧)

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وجه الشَّبه كبيرٌ بين صدر الآية الكريمة هنا وبين صدر الآية الكريمة السابعة عشرة من السورة الكريمة. قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾، إنَّ الآية الكريمة في أسلوب القَسَم تقرِّر كفر النَّصارى الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السَّلام. وما معنى القول: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾؟ ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذباً﴾، معناه: أنَّ هؤلاء الكافرين يتَّخذون عيسى عليه السَّلام إلهاً معبوداً من دون الله تعالى أو مع الله تعالى، وهل ذلك سوى الشِّرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى إذا مات العبد ولم يتب إلى الله تعالى ولم يبرأ من الشرك؟ إنَّ ذلك ليس سوى الشرك وهو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله تعالى. وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿إنَّ الله لا يغفر

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يُشْرِكْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾، وقال تعالى[1]: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾.

وفي أثناء دراستنا للآية الكريمة السابعة عشرة سبق لنا أن أشرنا إلى أنَّ الذي لفت انتباهنا في الجزئيَّة الكريمة مجيء لفظ الجلالة متقدّماً فلم يكن التَّعبير في مثل هذه الصّورة: إنَّ المسيح ابن مريم هو... إنَّما جاء التَّعبير في هذه الصّورة: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح ابن مريم﴾، وسبق أن أشرنا إلى أنَّ تقديم لفظ الجلالة: «الله» يلبّي نداء الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له. فهؤلاء الكافرون من النَّصارى يظلّون يذكرون الله تعالى أوّلاً تنبيهاً إلى الفطرة واستجابةً لداعيها وتحذيراً ممّا طرأ على هذه الفطرة وأفسدها وهي الغاية في الرّقّة والشّفافيَّة حتى انحرف بها صاحبها عن سواء السَّبيل. وسوف نلاحظ الشيء نفسه في الآية الكريمة التّالية وذلك في القول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾.

وسبق أن أشرنا كذلك إلى أنَّ هنالك أكثر من تعليل لإطلاق لفظ المسيح على عيسى عليه السَّلام منها كثرة سياحته، أو لأنَّه كان مسيح القدمين لا أخمص[2] لهما، أو لأنَّه إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله تعالى. وأشرنا كذلك إلى أنَّ في النَّص على أنَّ عيسى عليه السَّلام هو ابن مريم تنبيهاً إلى عجيبة خلقه من أنثى ولا ذكر وأنَّ في المقارنة بين عيسى عليه السَّلام وبين آدم عليه السَّلام تقدّماً لعجيبة خلق آدم من غير ذكرٍ

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٦.

(٢) أخمص القدم: ما لا يصيب الأرض من باطنها.

ولا أنثى. وكما كان آدم عليه السَّلام عبداً لله تعالى كان عيسى عليه السَّلام عبداً لله تعالى بطريق الأَوْلى والأحرى. وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى[1]: ﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون﴾.

والمعروف أنَّ هذا الزّعم في حقّ عيسى عليه السَّلام كان بغير إرادته عليه السَّلام بل كان بغير علمه، لا بل كان بعد رفعه عليه الصَّلاة والسَّلام على نحو ما بيَّنت الآيات الكريمات الأخيرات من هذه السورة الكريمة.

إنَّ المسيح عليه السَّلام يقرّر أنَّه عبد الله تعالى منذ أن كان في المهد، بل إنَّ أوَّل ما جرى على لسانه عليه السَّلام وهو في المهد التأكيد على أنَّه عبد الله تعالى ورسوله. جاء في سورة مريم[2] قوله تعالى: ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمّك بغيّا. فأشارت إليه. قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّا. قال إنّي عبد الله. آتاني الكتاب وجعلني نبيّا. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصَّلاة والزَّكاة ما دمت حيّا. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّا. والسَّلام عليّ يوم وُلِدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾.

وإذا كان عيسى عليه السَّلام قد صرَّح بأنَّه عبد الله تعالى منذ أن كان في المهد، فإنَّ هذا التَّصريح قد لازمه إلى أن رفعه الله تعالى إليه وقد قال عزّ من قائل[3]: ﴿ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحُكْمَ والنّبوّة ثمَّ يقولَ

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩.
(٢) الآيات ٢٧ ـ ٣٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

للنَّاس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسون﴾.

وإنَّ عيسى عليه السَّلام يجيء عنه هنا قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّة ومأواه النَّار وما للظَّالمين من أنصار﴾، إنَّ المسيح عيسى عليه السَّلام ينادي قومه بني إسرائيل باعتباره مبعوثاً إلى قومه بني إسرائيل ويأمرهم بأنِ يعبدوا الله تعالى ربّ عيسى عليه السَّلام وربّ قومه. إنَّ عيسى عليه السَّلام عبد الله تعالى ورسوله، ربّاه بنعمه العظيمة وغمره بآلائه الجسيمة. وإنَّ قومه عليه السَّلام عبيدٌ لله تعالى فعليهم أن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة كما يفرده عبده ورسوله عيسى عليه السَّلام بالعبادة.

ويُفْهَم من أمر عيسى عليه السَّلام قومه بإفراد الله تعالى بالعبادة أنَّ الجنَّة ثواب الموحّدين. لقد فُهِم هذا المعنى من القول: ﴿إنَّه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّة ومأواه النَّار﴾، وهذا القول يتمشَّى مع فحوى آيتي سورة النساء اللّتين فيهما النَّص على أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يُشْرَك به جلّ وعلا، ومعنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى حرَّم على المشرك الجنَّة... وما معنى تحريم الله تعالى الجنَّة على المشرك؟ معناه أنَّ مأواه النَّار وبئس القرار. إنَّ هذا المعنى هو الذي صرَّحت به الآية الكريمة. ويلاحظ أن الآية الكريمة لم تكتف بتقرير تحريم الجنة في حقّ المشرك مما يُفْهَمُ معه أنَّ النار مثواه إنَّما قرَّرت بصريح المنطوق المعنى المفهوم فبيَّنت أنَّ مأوى المشرك النَّار وبئس المصير. بل إنَّ الآية الكريمة قرَّرت ظلم هؤلاء المشركين المطلق وانتفاء الأنصار من دون الله تعالى وذلك في

القول: ﴿وما للظَّالمين من أنصار﴾، إنَّ في هذه الجزئيَّة الكريمة الأخيرة من الآية الكريمة إيماءً إلى قوله عزّ من قائل في سورة لقمان[1]: ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾، إنَّ الذين أشركوا مع الله تعالى غيره ظلموه جلّ وعلا فصرفوا العبادة التي يستحقّها جلّ وعلا وحده لا شريك له عنه إلى غيره، وظلموا العبادة نفسها حينما وضعوها في غير موضعها، وظلموا أنفسهم بارتكاب الذنب الذي لا يغفره الله تعالى فحرموا أنفسهم من الجنَّة وقذفوا بها إلى النَّار وبئس القرار. وبشأن رسول الله تعالى عيسى عليه السَّلام وأمثاله من المظلومين المكذوب عليهم هم مظلومون بالكذب عليهم بأنَّهم دعوا إلى عبادة أنفسهم.

ومن البيِّن أنَّ القول: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾، يتضمَّن حرف الجرّ «من» الذي يفيد التَّبعيض، ونفي البعض أبلغ من نفي الكلّ. إنَّ بعض الأنصار منفيّون عن المشركين يوم القيامة فكيف بما وراء بعض هؤلاء. إنَّ النَّفي في حقّهم آكد.

والآية الكريمة التّالية تؤكّد معنى هذه الآية الكريمة وتضيف الجديد من المعنى المفيد. قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من إلٰهٍ إلاّ إلٰهٌ واحد. وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم﴾.

تقرّر الآية الكريمة كسابقتها كفر الغالين في عيسى عليه السَّلام وفي أمّه مريم البتول الذين قالوا إنَّ الله سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة آلهة هم الله تعالى وعيسى وأمّه: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ

---

(1) الآية ١٣.

كذبا﴾، قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة﴾.

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد جاء فيها ما جرى على لسان السّيّد المسيح عليه السَّلام من دعوةٍ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وذلك بعد تقريرها كفر الغالين في عيسى عليه السَّلام، فإنَّ هذه الآية الكريمة التّالية يجيء فيها تقرير حقيقة الإِلٰه الواحد وتحذير الغالين بالعذاب الأليم إن لم ينتهوا ويكفّوا عمّا يقولون، وذلك بعد تقريرها كفر الغالين في عيسى عليه السَّلام وأمّ مريم البتول. وبهذا يكون في الآية الكريمة التّالية الجديد من المعاني والمفيد. قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من إلٰهٍ إلاَّ إلٰهٌ واحد. وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمَسّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم﴾. إنَّ الآية الكريمة في القول: ﴿وما مِنْ إلٰهٍ إلاَّ إلٰهٌ واحد﴾ تنفي في شقّها الأوّل أن يكون ثمّة جزءٌ من إلٰهٍ معبودٌ بغير حقّ خليقٌ بلفظ إلٰه، وفي نفي الجزء أو البعض نفيٌ للكلّ بطريق الأحرى والأولى على حين تثبت في شقّها الآخر الإِلٰه المعبود بحقٍّ الواحدَ الأحد الفرد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وبما أنَّ هنالك من لا زال على غلوّه في عيسى عليه السَّلام رغم هذا البيان من ربّ العالمين في القرآن المجيد، فإنَّ الجزئية الكريمة الأخيرة في الآية الكريمة تهدّد أولئك المستمرّين في غلوّهم بأنّهم إن لم ينتهوا عمّا يقولون في عيسى عليه السَّلام وأمّه وإن لم يكفّوا عن الزَّعم بأن عيسى عليه السَّلام وأمّه إلٰهان: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذبا﴾، ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم وعقابٌ موجع في نار جهنَّم التي وقودها النَّاس والحجارة التي صنعت منها الأصنام والتي أعدَّها الله تعالى للكافرين.

ويلاحظ في القول: ﴿ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ إليم﴾، مجيء الجملة التي تحمل الصفة التي استحقّ الغالون من أجلها العذاب الأليم وهي صفة الكفر. وإنَّ مجيء القول في هذه الصّورة وليس في هذه الصورة الأخرى الممكنة: ليمسّنّهم عذابٌ أليم، يصحّ أن يفهم منه أنَّ العذاب الأليم مقصورٌ على الذين أصرّوا على الكفر من بين القائلين من قبل إنَّ الله تعالى ثالث ثلاثة آلهة، وكأنَّ هذا التبيين للغالين والتّهديد المبين قد آتيا أكلهما، وكأنَّ كثيراً من الغالين قد انتهى عن غلوّه ولم تبق سوى البقيّة القليلة من الغالين الذين يصرّون على غلوّهم والذين يستحقّون العذاب الأليم.

أما وقد بقيت من الغالين في عيسى عليه السّلام وأمّه فئةٌ مصرّةٌ على غلوّها وكفرها رغم التّبيين والتّهديد، فإنَّ هذه الفئة المصرّة على عنادها وعلى ضلالها يكون من نصيبها الآية الكريمة التالية التي تنكر في أسلوب الاستفهام على تلك الفئة عدم التّوبة إلى الله تعالى وعدم سؤاله المغفرة وهو جلّ وعلا الغفور الرّحيم. قال تعالى: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه. والله غفورٌ رحيم﴾.

تبدأ الآية الكريمة بهمزة الاستفهام التّوبيخيّ الإنكاريّ التي تليها الفاء العاطفة الدّالّة على التّرتيب مع التّعقيب. والآية الكريمة تنكر بذلك في أسلوب الاستفهام التّوبيخيّ على المصرّين على كفرهم وعنادهم وغلوّهم في عيسى عليه السّلام وأمّه ألاّ يتوبوا على الفور إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وألاّ يستغفروه جلّ وعلا من ذلك الذّنب العظيم. إنَّ الله سبحانه وتعالى هو الغفور لكلّ ذنب الرّحيم الذي يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السيّئات والذي يعلم ما يفعل عباده من خيرٍ أو شرٍّ فيجازيهم عليه والذي يرشدهم إلى التّوبة.

والآية الكريمة التَّالية تبيّن حقيقة كلٍّ من المسيح عليه السَّلام وأمّه البتول وفضل الله تعالى على كلٍّ منهما مع تقديم الدَّليل على بشرية كلٍّ منهما والإنكار على المنصرفين عن الصِّراط المستقيم في حقّهما. قال تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمّه صدّيقةٌ كانا يأكلان الطَّعام. انظر كيف نبيِّن لهم الآيات ثمّ انظر أنّى يؤفكون﴾.

في أسلوب الحصر تقرّر الآية الكريمة أنَّ المسيح ابن مريم، ويلاحظ مجيء القول: «ابن مريم» مع إمكان الاستغناء عنه بقصد بقاء هذه الحقيقة راسخةً في كلّ نفس ثابتةً في كلّ ذهن، تقرّر أنَّ المسيح ابن مريم ليس إلاَّ رسولاً قد خلت من قبله الرسل ومضت ملبّيةً نداء ربّها، وأنَّ أمّه مريم البتول ليست إلاَّ صديقة مبالغةً في الصّدق[1]، وقد جاء عنها في سورة التَّحريم[2] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾.

والحقيقة أنَّ هذه الآية الكريمة التي تنفي ألوهيّة كلٍّ من عيسى وأمّه عليهما السَّلام وتثبت بشريّتهما وتقدّم الدّليل على ذلك تثبت لكلٍّ من عيسى عليه السَّلام وأمّه أرفع ما أنعم الله تعالى به على عبدٍ من عباده جلّ وعلا المصطفين بنعمة النّبوّة، وذلك فيما يتعلّق بعيسى عليه السَّلام، وأرفع ما أنعم الله تعالى به على عبدٍ من عباده أو أمةٍ من إمائه من غير المصطفين بنعمة النّبوّة، وذلك فيما يتعلّق بمريم البتول. وتفسير ذلك أنَّ أرفع ما أنعم الله تعالى به على عبدٍ من عباده درجة الرسالة التي تعتبر النّبوّة التي

(١) الجلالين.
(٢) الآية ١٢.

تأتي قبلها الطريق الوحيد المؤدّي إليها. ولهذا قيل عن المصطفى ﷺ إنّه خاتم النّبيّين لأنّ في سدّ باب النّبوّة الطريق الوحيد المؤدّي إلى الرّسالة سدّاً بطريق الأحرى والأولى لباب الرّسالة. قال تعالى[1]: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين. وكان الله بكلّ شيءٍ عليماً﴾، أمّا أرفع ما أنعم الله تعالى به على عبدٍ من عباده أو أمةٍ من إمائه من غير المصطفين بالنّبوّة الأخيار، فإنّه الذي يتمثّل في درجة الصدّيقيّة. وبناءً على ذلك نستطيع أن نقول إنّ أرفع درجات المنعم عليهم على الإطلاق هي درجة الرسالة، وقد نصّت الآية الكريمة على أن عيسى عليه السّلام رسول الله. ونستطيع أن نقول أيضاً إنّ أرفع درجات المنعم عليهم بعد درجة النّبوّة هي درجة الصدّيقية، وقد نصّت الآية الكريمة على أنّ مريم البتول صدّيقة. أمّا الدّليل على أنّ الرسالة أرفع الدرجات على الإطلاق وأن الصديقيّة أرفع الدرجات بعد النّبوّة، ففي سورة النساء التي رتّب فيها المنعم عليهم وفق هذا النسق: المرسلون، النّبيّون، الصدّيقيّون، الشهداء، الصّالحون. قال عزّ من قائل[2]: ﴿ومن يطع الله والرّسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾.

وتقدم الآية الكريمة الدّليل على بشريّة كل من عيسى عليه السّلام وأمّه. قال تعالى: ﴿كانا يأكلان الطّعام﴾، إنّ من يحتاج إلى الطّعام يحتاج إلى الشّراب، وإنّ من يحتاج إلى الطّعام والشراب عبدٌ مخلوق وليس أيّ شيءٍ آخر وراء ذلك، وإنّ من يأكل ويشرب يحتاج إلى أن يذهب إلى

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٦٩، ٧٠.

الغائط كي يتغوّط ويبول. إنّ كل هذه الحقائق صفاتٌ أصيلة في كلٍّ من عيسى عليه السّلام وأمّه وإنّها كلّها تؤكّد بشريّته عليه الصّلاة والسّلام وقد عرفنا أنّه عليه الصّلاة والسّلام حينما كان في المهد نصّ على أنّه عبد الله تعالى وكذلك في كهولته. جاء في سورة آل عمران[1]، قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم النّاس في المهد وكهلاً ومن الصّالحين﴾.

وبقصد التّعجيب من السلوك العجيب للغالين في عيسى عليه السّلام رغم هذه الأدلّة المعنويّة والحسّيّة تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ، وإنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة تبعٌ له عليه الصّلاة والسّلام، بأن ينظر بعين البصر وبعين البصيرة كيف يبيّن الله تعالى للغالين في عيسى عليه السّلام وأمّه الآيات البيّنات الدالاّت على أنّهما عبدان لله تعالى وبأن ينظر بعد ذلك أنّى يؤفكون وكيف يصرفون عن الحقّ ويضلّون عن الهدى[2]، والإفك: كلّ مصروفٍ عن وجهه الذي يَحِقُّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المهابّ مؤتفكة. وقوله تعالى: ﴿قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾، أي يُصْرَفون عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[3].

وما الذي يملك عيسى عليه السّلام وأمّه وغيرهما للغالين فيهم والمعروف أنّ كثيراً من هؤلاء المعبودين، ابتداءً بعيسى عليه السّلام وأمّه

---

(١) الآية ٤٥، ٤٦.

(٢) انظر تفسير الطبري (٦/٢٠٣)؛ والجلالين.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «أفك» (١٩).

مريم البتول لا يدلهم في غلوّ الغالين فيهم ومجاوزة حدّ الاعتدال؟ لا يملكون شيئاً من دفع الضّرّ أو جلبه، ومن جلب النّفع أو دفعه. إنَّ كلّ ذلك لله تعالى الواحد السّميع العليم. إنَّ هذه المعاني نبّهت عليها الآية الكريمة التالية، قال تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضَرّاً ولا نفعاً. والله هو السّميع العليم﴾.

إنَّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ، وتأمر كل فردٍ من أفراد الأمّة المسلمة تبعاً لذلك الأمر، أن يقول للغالين في عيسى عليه السّلام وأمّه وللغالين في سواهما، في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ: أتعبدون أيّها المشركون الضّالون الغالون من دون الله تعالى الذي يستحقّ العبادة وحده لا شريك له لأنَّ له دون سواه الخلق والأمر، أتعبدون من دون الله تعالى ما لا يملك لكم ضرّاً يدفعه أو يجلبه، ولا نفعاً يجلبه أو يدفعه، وتذرون أحسن الخالقين الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد السّميع العليم! إنَّ الله سبحانه وتعالى هو السّميع، هكذا في صيغة المبالغة. فالله تعالى هو السّميع لكلّ صوت. وإنَّ الله سبحانه وتعالى هو العليم، هكذا في صيغة المبالغة. فالله تعالى هو العليم بكلّ نيّةٍ وقولٍ وعمل وبكلّ سرٍّ ونجوى ووسوسة. لا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السماء. أحاط عزّ وجلّ بكلّ شيءٍ علما. إنَّ لسان حال الآية الكريمة يقول لكل مشركٍ وضالٍّ وغالٍ ومفرطٍ في غلوّه ما جرى على لسان إبراهيم عليه السّلام الذي آتاه الله تعالى رشده من قبل البلوغ خطاباً لأبيه آزر في قوله تعالى من سورة مريم[1]: ﴿يا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يُبْصِر ولا يغني عنك شيئاً﴾، إنَّ الله سبحانه وتعالى المعبود بحقٍّ هو القادر على كلّ شيء، وإنَّ الآلهة المعبودة

(١) الآية ٤٢.

من دون الله تعالى، من رضي منها بذلك كفرعون عليه لعنة الله تعالى ومن لم يرض بذلك بل من لم يعلم بذلك كعيسى عليه السَّلام: ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾[1]، إنَّهم لا يملكون شيئاً من ذلك لأنفسهم فكي يملكونه لغيرهم!

ولمّا كان أهل الكتاب بعامّة، والنصارى بخاصّة، أكثر الناس غلوّاً فإنَّ الآية الكريمة التالية تخصّهم بالحديث وبالتَّوجيه. قال تعالى: ﴿قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحقّ ولا تتَّبعوا أهواء قومٍ قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾.

إنَّ الآية الكريمة تبدأ بما بدأت به الآية الكريمة السابقة: «قل» وإنَّ الخطاب هنا هو الخطاب هنالك. إنَّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ وكلّ فردٍ من أفراد الأمة المحمديَّة أن يقول لأهل الكتاب، وأن ينادي كلاًّ من اليهود أتباع موسى عليه السَّلام الذين غلوا في عزير فقالوا إنه ابن الله، ومن النَّصارى أتباع عيسى عليه السَّلام الذين غَلَوْا في عيسى عليه السَّلام فقالوا إنه ابن الله أو الله أو ثالث ثلاثة: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذبا﴾، وأن ينهى كلاًّ من الفريقين عن أن يغلو في دينه غلوّاً غير الحق. إنَّ على كلٍّ ألاَّ يغلو في دينه، وإنَّ على كلٍّ ألاَّ يتَّبع أهواء قومٍ سابقين قد ضلّوا هم أنفسهم من قبل، وأضلّوا كثيراً من الأتباع، وضلّوا عن سواء السبيل ووسط الطريق وعن الصراط المستقيم. إنَّ اليهود والنَّصارى وجدوا آباءهم وأجدادهم غالين في عزيرٍ وفي المسيح عليه السَّلام فاقتدوا

(١) سورة الفرقان: الآية ٣.

بهم وعطّلوا عقولهم. وإنَّ النَّصارى وجدوا اليهود قد قالوا على مريم البتول وابنها عيسى عليه السَّلام بهتاناً عظيماً فغلوا فيهما إلى درجة التأليه. والعجيب أنَّ كل تصرّفات النَّصارى كانت تخالف عمداً تصرّفات اليهود حتى انتهت المخالفة بالنصارى إلى الارتكاب في حقّ عيسى عليه السَّلام وأمّه الذنب الذي لا يغفره الله تعالى وهو الشرك[١].

ويلفت النّظر بشأن هذه الآية الكريمة التي تتحدَّث عن النَّصارى بخاصَّة صفة الضّلال. وصفة الضّلال هذه تذكّرنا بالآية الكريمة الأخيرة من سورة الفاتحة التي جاء فيها ذكر كلٍّ من المغضوب عليهم والضّالّين. قال تعالى[٢]: ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين﴾، عن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال: اليهود. قلت: الضَّالين. قال: النَّصارى[٣]، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً[٤]، أما وقد نالت أمّة الضَّلال نصيبها فقد نالت أمة الغضب واللعنة نصيبها وذلك في:

---

(١) انظر هنا كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنَّصارى لابن القيّم (١٤٢) فما بعدها من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة ١٣٩٦هـ رقم (٢).

(٢) سورة الفاتحة: الآيتان ٦، ٧.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠)؛ وانظر (٣٩).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠)؛ وانظر دراستنا المتأمّلة بعنوان: تأمّلات في سورة الفاتحة.

الآيات رقم (٧٨ ـ ٨١)

قل تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنَّ الكافرين من بني إسرائيل لُعِنوا على لسان داود نبيّ الله تعالى عليه السّلام وعلى لسان عيسى ابن مريم نبيّ الله تعالى عليه السّلام. واللَّعْن: الطرد والإبعاد على سبيل السَّخَط وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبةٌ، وفي الدّنيا انقطاعٌ من قبول رحمته وتوفيقه. ومن الإنسان دعاءٌ على غيره[1]، عن ابن عبّاس: لعنوا في التَّوراة والإنجيل وفي الزّبور وفي الفرقان[2]، والمعنى أنَّ كافري بني إسرائيل لعنوا في التّوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام، وفي الإنجيل الذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السَّلام، وفي الزَّبور الذي أوحاه الله تعالى إلى داود عليه السَّلام، وفي الفرقان بمعنى القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى محمد بن عبد الله ﷺ.

وما سبب ذلك اللعن والدعاء عليهم بالطّرد والإبعاد من رحمة الله تعالى؟ الجواب في القول: ﴿ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾، ونستطيع أن

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «لعن» (٤٥١).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٢).

نفهم العصيان بأنّه عبارة عن الذّنوب والآثام التي يغلب عليها لزوم صاحبها وعدم تعدّيها إلى سواه أو تجاوزها إلى غيره. أمّا العدوان فإنّه عبارةٌ عن الاعتداء على الآخرين وإيصال الأذى إليهم وتعمّد الإساءة إليهم. ومن الآيات الكريمات التي فصّلت عصيان بني إسرائيل وعدوانهم هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران[1]، قال تعالى: ﴿ضُرِبت عليهم الذِّلَّة أينما ثُقِفُوا إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهم المسكنة. ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، وهذه الآية الكريمة من سورة البقرة[2]، قال تعالى: ﴿ وضُرِبَتْ عليهم الذِّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله. ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ. ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾، لقد كان من بني إسرائيل عصيانٌ فكفرٌ بآيات الله فضرب الذلّة والمسكنة عليهم. والذلة والمسكنة من جنس واحد. وكان من بني إسرائيل كذلك اعتداءٌ فقتلهم الأنبياء بغير حقّ فرجوعٌ بغضبٍ من الله تعالى.

والآية الكريمة التالية تبيّن السبب في الأعمال السيّئة التي أقدموا عليها والمصير السَّيِّىء الذي آلوا إليه. إنَّ السبب عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. قال تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه. لبئس ما كانوا يفعلون﴾، ومعنى القول: كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه: كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن المعاصي التي كانوا يعصون الله بها[3]، وفي أسلوب

---

(١) الآية ١١٢.

(٢) الآية ٦١.

(٣) انظر تفسير الطبري (٦/٢٠٦).

القسم تذمّ الآية الكريمة ما كانوا يفعلونه من معاصٍ ومآس. لبئس ما كانوا يفعلون: اللاَّم واقعةٌ في جواب قسمٍ مقدّر. بئس فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ. ما: اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل. أو في محلّ نصب تمييز للضَّمير المستتر فاعل بئس. والمخصوص بالذّمّ محذوف تقديره فعلهم بترك النَّهي(١).

إنَّ بني إسرائيل بسبب تركهم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر استحقّوا الطّرد من رحمة الله تعالى. والمعروف أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من دعامات بقاء أمّة الإسلام ووجودها، بحيث إنَّ هذه الأمّة إذا كان ربّ العزّة قد أخرجها للنَّاس كي تؤمن به جلّ وعلا وتفرده جلّ وعلا بالعبادة، فإنَّ القاعدة التي تمكّنها من الوصول إلى هذه الغاية النّبيلة هي قاعدة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. ونحن إذا اعتبرنا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وجهين لدينارٍ واحد كان هذان الوجهان قسيمين للإيمان بالله تعالى على نحو ما جاء في هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران(٢)، قال تعالى: ﴿كنتم خَيْرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، أمّا إذا اعتبرنا الأمر بالمعروف شيئاً والنَّهي عن المنكر شيئاً آخر فذلك معناه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما الثلثان وللإيمان بالله تعالى الثّلث! وفي كلٍّ من الاعتبارين للأمر المعروف والنَّهي عن المنكر دوره واعتباره في وجود هذه الأمة المسلمة وصلاحيتها للقيادة والرّيادة، وقد قال تعالى(٣): ﴿ولتكن منكم أمّةٌ

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه (٣/ ٣٥٢).
(٢) الآية ١١٠.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.